﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 12 - 14]

بيانُ الأحزابِ الذين كذَّبوا رسلَهم، فحَقَّ عليهم عِقابُ ربِّهم

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد أنْ وضَّحتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ المشركين الَّذين يناصبون رسول اللّه العداء ما هم إلّا جندٌ مهزومٌ، كسائر الجنود الذين تحزَّبوا ضدَّ أنبيائهم ورسلهم؛ تسليةً للرَّسول، ووعدًا له بالنَّصر، وتعريضًا بوَعيدِ مُكَذِّبيهِ بِأنَّهُم صائِرونَ إلى ما صارَت إلَيهِ الأحْزابُ الَّذينَ هَؤُلاءِ مِنهُم؛ ناسب أن تأتي هذه الآياتُ بما هو كالبيان لهذا التَّعريضِ، والدَّليل عَلى المَصيرِ المَقصودِ عَلى طَريقَةِ قياسِ المُساواةِ[1]، وذلك بذكر أقوامٍ من الأحزاب كذَّبوا رُسُلَهم، فحَقَّ عليهم عِقابُ ربِّهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾: (وتد): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوَتِدُ[2]، وهو: ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب[3]، يقال: وتَدَ الوتِدُ وتْدًا وتِدَةً ووتَّد، كلاهما: ثبت، ووَتَدْتُه: أثْبَتُّه، وتِدٌ واتِدٌ: ثابت رأس منتصب، والمعنى المحوريُّ لهذا الجذر: الثَّباتُ رسوخًا، فوظيفةُ الوتد أن تشدَّ به الخيام ونحوها، وعلى التَّشبيه به قالوا: أوتاد الفم: أسنانُهُ، وأوتادُ الأرض: الجبالُ؛ لأنَّها تثبِّتها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: 6 - 7]، وقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر: 10][4]، أي: ذي المُلك الثّابت الرّاسخ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وتد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وتد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وتد).

2) ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾: (أيك) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ اجتِماعُ شَجَرٍ[1]، قال الخَليلُ: الأيكَةُ غَيضَةٌ تُنبِتُ السِّدْرَ والأراكَ، ويقالُ: أيكَةٌ أيِّكَةٌ: مثمرة[2]، وتَكونُ مِن ناعِمِ الشَّجَرِ، والمعنى المحوريُّ: التفافُ الشَّجر بعضُه على بعضٍ مع نعومة وخفَّة، كالأيكة الموصوفةِ، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ [الشعراء: 176]: كانوا أصحابَ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ[3].

3) ﴿فَحَقَّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلى إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، وهونَقيضُ الباطِلِ[4]، وقيل: الشَّيء الثّابت الرّاسخ المتمكِّن بشريعة صحيحة أو عرف عامٍّ مسلَّم، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ، وثَبَتَ، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]، وقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [القصص: 63]، أي: ثَبَت، وقال أيضًا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: 71]: وجَبت، وثَبَتَتْ؛ بسبب مخالفتِهم صاحبَ الأمرِ سبحانه[5].

4) ﴿عِقَابِ﴾: (عقب) أصلانِ يَدُلُّ أحَدُهُما عَلى تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانِهِ بَعدَ غَيْرِهِ، ومِنَ البابِ: عاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبَةً وعِقابًا، وإنَّما سُمّيَتْ عُقوبَةً؛ لأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ[6]، والعاقِبةُ يختصُّ إطلاقها بالثّواب، نحو قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وقد تُستَعمل في العقوبة أيضًا نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الروم: 10]، والعُقوبَةُ والمعاقبة والعِقاب يختصُّ بالعذاب، و﴿عِقَابِ﴾ هنا بمعنى: (مجازاتي لهم بالعذاب)[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيِّنُ هذه الآياتُ عقابَ أقوامٍ سبقوا الكفّارَ في التَّحزُّب ضدَّ رسلِهم، فناصبوهم العداء، وكذَّبوا بوحي اللّه المُنَزَّل عليهم، وهم: قوم نوح وعاد وفرعون ذو السلطان الثّابت

(1) الفراهيدي، العين: (أيك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (عقب).

الأركان، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، الذين شاقّوا رُسُلَهم، فحقَّت عليهم جميعًا كلمةُ الله، وحاقَ بهم سوءُ العذاب، فأغرقَ اللّهُ قوم نوح بالطّوفان، وأهلك فرعونَ وجندَهُ في البحر، وقومَ هود بالريح، وقومَ صالح بالصَّيحةِ، وقومَ لوط بالخسف، وأصحابَ الأيكة بعذاب الظُّلَّة[1].

كلُّ الَّذينَ كذَّبوا رُسُلَ الله حقَّ عليهم عقابُهُ أيًّا كانوا ومهما كانوا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾:

جاءت جملة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ لأنَّها بدلٌ منها، أو بيانٌ لها[2]، ما يعني أنَّها فُصِلت عنها لكمال الاتِّصال، الَّذي تنزل فيه الجملة الثانية من الجملة السّابقة عليها منزلةَ التّابعِ مِنَ المتبوع، ويمكن أن يكونَ الفصلُ لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الآيةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارتْهُ الآيةُ السّابقةُ في نفس المُتَلَقّي عن الأحزاب الذين هُزِموا بسببِ معاداتهم الأنبياءَ والمرسلين.

تراكيبُ القرآنِ تثير النُّفوسَ للسؤال عن مصائر الغابرين

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿كَذَّبَتْ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَذَّبَتْ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على حصوله من الأقوام الواردِ ذكرُهم مِنْ غير شكٍّ أو افتراء، ولتحذير مشركي مكَّة من السَّير على منوالِهم في تكذيب الرَّسول وعدم تصديقه فيما يُبَلِّغُه عن ربِّه، لا سيَّما إذا لم يُعهد عليه كذبٌ من قبلُ؛ لأنَّ مَنْ لم يكذبْ على النّاس؛ لن يكذبَ على الله تعالى من باب أولى.

الأقوامُ المذكورون كذَّبوا رُسُلَهم وشاقّوهم من غير شكٍّ أو افتراء

الغرضُ مِن تقديم الظَّرف، وسرُّ إضافتِهِ:

قَدَّمَ البيانُ الظَّرفَ: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ على المُسند إليه: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

لأنَّ الاهتمامَ منصبٌّ على بيان ما حدثَ للكفّار السّابقين مِن عقاب بسبب تكذيبِهم لرسلِهم وتحزُّبهم ضدَّهم، عسى أن يكونَ بيانُ ما حلَّ بهم رادعًا لأهل مكَّةَ عن أن ينهجوا نهجَهُم، أو يسيروا على منوالِهم، يقوّي ذلك إضافةُ الظَّرف إلى الضَّمير العائد إلى مشركي مكَّة وكفّارها، والمُشْعرُ بأنَّ هذا البيانَ خاصٌّ بهم، وموجَّهٌ إليهم، علَّهم يفيقون.

القرآنُ الكريمُ يُشعر المشركين بأنَّ بيانَهُ خاصٌّ بهم، عَلَّهم يفيقون

دلالةُ التَّعبيرِ عن الفاعل بـ ﴿قَوْمُ﴾ مضافًا:

عبَّر البيانُ عن فاعل التَّكذيب بـ ﴿قَوْمُ﴾، الدالِّ على اجتماع الناس وقيامهم بعزم وحماس[1] مضافًا إلى ﴿نُوحٍ﴾ في قوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ المكذِّبين هم أهلُه وقومُه، وأنَّ الذي كان متوقَّعًا منهم أن يحتشدوا خلفَهُ، ويقوموا لمؤازرته، لا أنْ يقوموا لتكذيبِهِ ومعاندته، والتَّحزُّب ضدَّه، وثمَّة إشارةٌ أخرى تُفيد أنَّ كونَهُ واحدًا منهم لم يكن شفيعًا في عدم نزول عقابِ اللّه تعالى بهم.

كونُ الرَّسولِ مِنْ قومِه لم يكن شفيعًا في عدم نزول عِقابِ الله بهم

دلالةُ العطفِ والتَّرتيب بين الأحزابِ المُكذِّبين:

عطف البيانُ على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كلًّا مِنْ (عاد وفِرْعَوْن...) بالواو التي تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا مثلَهم في تكذيبِ الرُّسل، والتَّحزُّب ضدَّهم، وبدأ النَّظم الكريم بـ: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ لأنَّهم كانوا أوَّلَ المكذِّبين، وكان لهم مِنَ القوَّة والاجتماع ما لم يتحقَّق لغيرهم ممَّن جاؤوا بعدهم، ولأنَّهم استمرّوا في عزَّتهم وشقاقهم حتَّى بعدما رأوا الماء، وأيقنوا بالعذاب، ولم يسمحوا بالإذعان ولا بالتَّضرُّع إلى نوح ﷺ في أن يركبوا معه، أو يدعو لهم، فينجوا، وثَنَّى النَّظمُ بـ (عادٍ) قوم هود ﷺ؛ لأنَّهم جاؤوا بعد قومِ نوحٍ في الزَّمان، ولأنَّ لهم من الضَّخامة والعزِّ ما ليس لغيرهم، مع قوَّة الأبدان وعلوِّ الهمم واتِّساع الملك، حتَّى بنوا جنَّة في الأرض، ولأنَّهم استمرّوا في

العطفُ دلالةٌ على المماثلةِ في التَّكذيب، والتَّرتيب جاء وفق الزَّمان والقوَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

شقاقِهم إلى أن خرجَت عليهم الرّيح، ورأوها تحمل الإبلَ فيما بين السَّماء والأرض، وهجم عليهم أوائلها، وهم يرون هودًا، ومَن معه من المؤمنين - ﷺ - في عافية منها، ولم يدعُهُم الشِّقاقُ يسألونه في الدُّعاء لهم، ولا يذعنون لِما دعاهم إليه، وجاء النَّظمُ بعد (عاد) بـ (فِرْعَوْن)؛ لأنَّه كان أضخمَ ملكًا، وأرسخَ حكمًا، وقهر غيره بعزِّ سلطانِه وكثرة أعوانِه، حتَّى ادَّعى الألوهيَّة في زمانِه، وتَكَبَّر بسَعة مُلكِه، والأنهارِ الجاريةِ مِنْ تحته[1].

سرُّ تخصيص (فِرْعَوْنَ) بإسناد التَّكذيب إليه:

فرعونُ أوَّلُ مَنْ كفر مِن قومِه، وهو السَّببُ في تكذيبهم والحاثُّ لهم عليه

خُصَّ (فِرْعَوْنُ) بإسنادِ التَّكذيبِ إلَيه دونَ (قَوْمِه)؛ لكونه أوَّلَ الكافرين منهم، والسَّببَ في تكذيبهم، والمُلْهِمَ لهم فيه، والحاثَّ لهم عليه، فقد أرسل اللهُ تعالى موسى إلَيه؛ ليُطْلِقَ بَني إسرائيلَ، فَكَذَّبَ موسى، فَأَمَرَ اللهُ موسَى بمجادَلَتِه لإبطالِ كُفْرِه، فتَسَلْسَلَ الجدالُ في العَقيدَةِ، ووَجَبَ إشهارُ أنَّ فِرعَونَ وقَومَهُ في ضَلالٍ؛ لِئَلّا يَغتَرَّ بَنو إسرائيلَ بِشُبُهاتِ فِرعَونَ، ثُمَّ كانَ فِرعَونُ عَقِبَ ذَلِكَ مُضْمِرًا أذَى موسَى ومُعلِنًا بِتكذيبِه[2].

دلالةُ وصفِ (فِرْعَوْنَ) بـ ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾، وسرُّ إضافته:

كثرةُ الأوتادِ لم تَحُلْ بين فرعونَ وعذابِ الله

قولُهُ: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ يعني: صاحب الأوتاد، وجيءَ بِهِ مضافًا؛ للدَّلالة على تفرُّد فرعونَ بها، واختصاصه بامتلاكها دونَ غيرِه ممَّن كذَّبوا رسلَهم، وتحزَّبوا ضدَّهم، ووصفه النَّظمُ بـ ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾، لِبيان عَظَمَةِ مُلْكِه وقوَّتِه، والدَّلالةِ على أنَّ ذَلِكَ لم يكن ليَحولَ بينَهُ وبينَ عَذابِ اللَّهِ عندما نزل به وبقومه[3]، سواءٌ أكانت الأوتادُ مجازًا أم حقيقةً؛ إذ قيل في تفسيرها: "كانتْ لَهُ أوتادٌ وخَشَبٌ يَلْعَبُ بِها وعَلَيها، وقال السُّدّيُّ: كانَ يَقْتُلُ النّاسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 341.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

بالأوْتادِ، ويُسَمِّرُهُم في الأرضِ بِها، وقالَ الضَّحّاكُ: أرادَ المَبانيَ العَظيمَةَ الثّابِتَةَ، وقيلَ: عِبارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ أخْبيَتِه"[1]، وثمَّ مَنْ فسَّرها بالأهرام الَّتي اختُصَّ بِها الفراعينُ في مِصرَ، وجاز تسميتُها أوتادًا تشبيهًا لها بالجبالِ في الرُّسوخ في الأرض والعظم والسُّموِّ والعلوِّ والارتفاع[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾:

أصلُ قولِه: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ مِنْ ثَباتِ البَيْتِ المُطْنَبِ بأوتادِه، فشُبِّه به ثباتُ العزِّ والملك واستقامة الأمر، ثم حُذِفَ المشبَّهُ، واستُعير له المشبَّهُ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة الأصليَّة[3]، الَّتي تُبَيِّنُ ما كان يتمتَّع به فرعونُ من الأسباب الموجبة ثباتَ المُلك وتقويتَهُ، مِن عُلوِّ السُّلطان بكثرة الأعوان، والتَّفرُّد بالأوامر، وسَعة العقل، ودقَّة المكر، وكثرة الحيل بالسِّحر وغيره، وجودة التَّدبير بالعدل فيما يزعم، وصَوْلَةِ القهر[4] وغير ذلك.

ثباتُ مُلك فرعونَ ورسوخُه يشبه ثباتَ البيت المُطْنَبِ بالأوتادِ

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾:

جيءَ بـ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ معطوفين على ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ بالواو التي تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا مثله ومثل سابقيه في تكذيب رسلِهم ومناصبتهم العداء، وتكذيب الوحي المُنَزَّل عليهم من ربِّهم، وكانوا مثلهم أيضًا في القوَّة والمنعة وكثرة المُتَحَزِّبين.

التَّكذيبُ والشِّقاقُ والتَّحزُّبُ سماتٌ مشتركةٌ بين المناوئين للرُّسل على مرِّ العصور

السِّرُّ في تقديم ذِكْر (فِرْعَوْن):

تَقديمُ ذِكْرِ (فِرْعَوْنَ) عَلى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ مَعَ أنَّ قِصَّتَهُ حَدَثَتْ بَعْدَ قَصَصِهِم؛ لأنَّ حالَهُ مَعَ موسَى أشْبَهُ بِحالِ

أوجهُ الشَّبهِ بين فرعون ومشركي مكَّة كثيرةٌ متعدِّدةٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 71، في الهامش أسفل الصفحة.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 76، 75.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 342، 341.

زُعَماءِ أهْلِ الشِّرْكِ بمكَّةَ مِنْ أحْوالِ الأُمَمِ الأُخرى، فَإنَّهُ قاوَمَ موسى بِجَيْشٍ، كَما قاوَمَ المُشرِكونَ المُسلِمينَ بِجُيوشٍ[1].

الغرضُ مِن إضافة ﴿وَقَوْمُ﴾ إلى ﴿لُوطٍ﴾:

المأمولُ في أقوامِ الرُّسل القيامُ لمساندتهم، وليس القيامَ لشقاقِهم

عبَّر البيانُ بـ ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ مضافًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ المكذِّبين هم أهلُه وقومُه، وأنَّ الذي كان متوقَّعًا منهم أن يحتشدوا خلفَهُ، ويقوموا لمؤازرته، لا أنْ يقوموا لتكذيبِهِ ومعاندتِهِ والتَّحزُّبِ ضدَّهُ، وثَمَّة إشارةٌ أخرى تُفيد أنَّ كونَهُ واحدًا منهم لم يكن شفيعًا في عدم نزولِ عقابِ اللّه تعالى بهم.

الغرضُ مِن الإضافةِ في: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾:

القرآنُ يُسَمّي كلَّ أمَّةٍ بما امتازت به عن غيرها

عبَّر النَّظمُ الكريم عن قوم شعيبٍ عليه السلام بـ (أصْحابُ الأيْكَةِ) بإضافتهم إلى ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ الَّتي تعني: الشَّجرَ النّاعم المُلتفَّ - كما سبق - لتفرُّدهم بهذه المزيَّة دون غيرهم من الأمم الَّتي ورد ذِكرُها؛ إذ لم يكن هذا النَّوعُ من الشَّجر ينبت في أرض غيرِ أرضِهم، وفي التَّعبير عنهم بهذا الاسم دون (قوم شعيب) دلالةٌ على أنَّ شعيبًا عليه السلام لم يكن منهم، وإنَّما أرسلَهُ اللّه تعالى إليهم، ويقوّيه التَّعبيرُ عنهم في سورة الأعراف بقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: 176 - 177]، معبِّرًا باسمه دون: (أخوهم)، كما وصفت السّورة غيره مِنَ الأنبياء والمرسلين[2].

الغرضُ مِن حذف المفعولِ في جملة: ﴿كَذَّبَتْ﴾:

قد يُحذَفُ المفعولُ للتَّشنيع بالفعل، وتقبيح صدورِهِ مِنَ الفاعل

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ في هاتين الآيتين فعلَ التَّكذيب: ﴿كَذَّبَتْ﴾ وفاعلَه: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، ولم يذكر المفعولَ؛ لدلالة السّياق عليه، ما يعني أنَّه معلومٌ معروفٌ، والمعلومُ المعروفُ لا يُحتاجُ إلى التَّصريح به، ويمكن أن يكون الغرضُ من حذفِهِ التَّشنيعَ بفعل هؤلاء المتحزِّبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 221.
(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 310.

وتقبيحَ صنيعهم، وربَّما جاء الحذفُ؛ "لأنَّهُ سَيَرِدُ ما يُبَيِّنُهُ في قَولِهِ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، كَما سَيأتي"[1].

موقعُ جملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ ودلالته:

جُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مُعترِضَةٌ بَينَ جُملَةِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، وجُملَةِ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، جيءَ بها للتَّنبيه إلى أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين شاقّوا رُسُلَهم، وتحزَّبوا ضدَّهم، في إلماحة إلى أنَّ ما يفعلُهُ كفّارُ مكَّة مع رسول الله ﷺ مشابهٌ لفعل الأحزابِ، وسينزل بهم من العذاب مثلُ ما نزل بهؤلاء الأحزاب.

يأتي الاعتراضُ غالبًا لقصد التَّنبيهِ إلى معنى يكون مِنَ الأهمّيَّة بمكان

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الغرضُ من التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ في جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ هو التَّعظيم، أي: تَعظيم قوَّة السّابقين في التَّجنُّد والاجتماع على مَنْ يناوئونه[2]، "والظّاهرُ أنَّ الإشارَةَ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى أقْرَبِ مَذْكورٍ، وهُم قَوْمُ نوحٍ ومَنْ عُطِفَ عَليهِم، وفيه تَفْخيمٌ لشأنِهم وإعلاءٌ لَهُم عَلى مَنْ تَحَزَّبَ عَلى رَسولِ اللَّه، أي: هَؤُلاءِ العُظَماءُ لَمّا كَذَّبوا؛ عوقِبوا"[3]، وأنَّ العقاب إذا نزل بهم؛ فإنَّ نزولَهُ بكم سيتحقَّق، ولن يعيقَهُ عائقٌ مِن باب أولى.

الأحزابُ المهزومون هم الَّذين صدر التَّكذيب منهم

الغرضُ مِن تعريف الطَّرفين في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾:

في جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ قُصِرَتْ صِفَةُ الأحزابِ عَلى المُشارِ إليهِم بِـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بادِّعاءِ أنَّهم الأُمَمُ المُتَحَزِّبَةُ، وأنَّ غيرَهُم لَمّا يَبلُغوا مَبلَغَ أن يُعَدّوا مِنَ الأحزابِ، فَظاهِرُ القصرِ ولامُ التَّعريفِ لِتَأكيدِ مَعنَى الكَمالِ، والمعنَى: أولَئِكَ المَذكورونَ هُم الأُمَمُ الَّتي لا تُضاهيهِم أُمَمٌ في القوَّةِ والشِّدَّةِ، وهَذا تَعريضٌ بِتَخويفِ مُشْرِكي العَرَبِ مِن أن يَنْزِلَ بِهِم ما نَزَلَ بِأولَئِكَ[4].

كُفّارُ قريش لم يبلغوا مبلغَ السّابقين في القوّة والتَّحزُّب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 342.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 141.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222، 221.

موقعُ جملة: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا﴾ ممّا قبلَها ودلالته:

تقريرُ تكذيبِ المشركين لرسلِهم والتَّمهيد لاستحقاقِهم العقابَ

جُمْلَةُ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لِجملةِ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلَى قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾، ما يعني أنَّها جاءت مفصولةً عمّا قبلَها، لما بينهما مِن كمال الاتِّصال الَّذي تنزل فيه الجملةُ الثّانيةُ من السّابقة عليها منزلةَ التّابع مِن متبوعِهِ، فستغني بما بينهما من رباط معنويٍّ عن الرّابط اللَّفظيِّ، وهو "استئنافٌ جيءَ بِهِ؛ تقريرًا لتكذيبهم على أبلغ وجهٍ، وتمهيدًا لما يعقبه من استحقاق كلِّ أمَّة من الأمم المذكورة ما نزل بها مِن عقاب"[1].

الغرضُ مِن التَّعبير بأسلوب القصر:

لا صفة للأحزاب إلّا تكذيبُ أنبيائهم ورسلهم

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ قصرٌ موصوف على صفة قصرًا حقيقيًّا، بطريق النَّفي والاستثناء، معناه: "ما كلُّ حزب من الأحزاب محكومًا عليه بحكم إلّا محكومًا عليه بأنَّه كذَّب الرُّسل، أو مُخبَرًا عنه بخبرٍ إلّا مُخبَرًا عنه بأنَّه كذب الرُّسل"[2]، والغرضُ مِن التَّعبير بهذا الطَّريق المبالغةُ في تأكيد تكذيب الأحزاب، وإثباتُ أنَّهم لم يصدِّقوا رسلَهم على الرَّغم مِنَ المعجزات والبراهين التي جاؤوا بها لإثبات أنَّهم رسلُ اللّهِ، وقد أَخْبَرَ النَّظمُ "أوَّلًا عَنهُم بِأنَّهُم كَذَّبوا، وأكَّدَ ذَلِكَ بالإخبارِ عَنهُم بِأنَّهُم لَيسوا إلّا مُكَذِّبينَ عَلى وجهِ الحَصرِ، كَأنَّهُم لا صِفَةَ لَهُم إلّا تَكْذيبُ الرُّسُلِ لِتَوَغُّلِهِم فيها"[3].

الغرضُ مِنَ التَّعبير بلفظ العموم:

التَّعبيرُ بألفاظ العموم يفيد الشُّمول، وينفي حصول التَّصديق بأي شكل

عبَّر النَّظمُ عن الأحزاب المُكذِّبين بلفظ ﴿كُلٌّ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.

التَّأكيد والجزم بحصول التَّكذيب من جميع الأمم الوارد ذكرُها بلا استثناءٍ، كما أنَّه ينفي احتمالَ حصولِ التَّصديق من بعضِها أو مِن غالبيَّة أفرادها بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشكال.

الغرضُ مِن حذفِ المضافِ إليه في ﴿كُلٌّ﴾:

تقليلُ شأنِ المحذوف، وصونِ اللِّسان عن ذكرِه صراحة أو إضمارًا

التَّنوينُ في ﴿كُلٌّ﴾ تنوينُ عوضٍ عن مضافٍ إليه محذوفٍ، تقديرُه: إن كلُّهم[1]، والغرضُ من حذف الضَّمير العائد على الأحزاب لكونِه معلومًا من السّياق، بجانب تقليلِ شأنِهم، وتحقير أمرهم، وازدراء فعلِهم، وصون اللِّسان عن ذِكرهم صراحةً أو إضمارًا؛ لأنَّهم كذَّبوا رسلَ الله، وشاقّوهم، وكفروا بما أُنزل إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿كَذَّبَ﴾:

الأحزابُ توغَّلوا في التَّكذيب توغُّلًا ليس معه احتمالُ تصديقٍ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَذَّبَ﴾ ماضيًا؛ لدلالتِه بمعناه على حصول تكذيب المُرسلين مِنَ الأقوام السّابق ذكرُهم من غيرِ شكٍّ أو افتراء، ودلالته بمبناه - مُضعَّف العين - على أنَّهم بالغوا في التَّكذيب، وتوغَّلوا فيه توغُّلًا ليس معه أيُّ احتمالٍ لحصول التَّصديق بأيِّ صورةٍ من الصّور.

سرُّ تعديةِ فعل التَّكذيب إلى الجمع:

تكذيبُ واحد من الرُّسل يُفهم منه تكذيبُ جميعِ المرسلين

عُدّيَ الفعلُ ﴿كَذَّبَ﴾ إلى ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بصيغَةِ الجَمْع، مَعَ أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ إنَّما كَذَّبَت رَسولَها لِقَصدِ تَفظيعِ التَّكذيبِ وتشنيعِه[2]، والإشارةُ إلى أنَّ مَنْ كذَّب رسولًا واحدًا مع ثبوت رسالته، فقد استهانَ بمَنْ أرسلَهُ، وذلك ملزومٌ لتكذيب جميع مَنْ يرسلُهُ؛ لتساوي المعجزاتِ الَّتي ثبَّتت رسالتُهم بها في إيجاب التَّصديق[3]، ولأنَّ الرُّسلَ يُصَدِّقُ كلٌّ منهم الكلَّ، وكلُّهم متَّفقون على الحقِّ، فتكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ لهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 344.

جميعًا، ويمكن أن يكونَ التَّعبيرُ بالجمع من قبيلِ مقابلة الجمعِ بالجمع، والمقصودُ تكذيبُ كلِّ حزبٍ لرسولِهِ[1].

بلاغةُ الإبهامِ والتَّوضيح في ذِكر تكذيب الأحزاب:

التَّسجيلُ باستحقاق الكافرين أشدَّ العذاب وأبلغه

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ تكذيبَ الأحزاب أوَّلًا في الجملة الخبريَّة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائيَّة: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا﴾، فأوضح فيها أنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الأحزاب كذَّب جميعَ الرُّسل؛ لأنَّهم إذا كذَّبوا واحدًا منهم؛ فقد كذَّبوهم جميعًا، وفي تكرير التَّكذيب وإيضاحِهِ بعد إبهامه، والتَّنويع في تكريرِهِ بالجملة الخبريَّة أوَّلًا، وبالاستثنائيَّة ثانيًا، وما في الاستثنائيَّة من الوضع على وجهِ التَّوكيد والتَّخصيص: أنواعٌ من المبالغة المُسجَّلَة عليهم باستحقاق أشدِّ العقابِ وأبلغه[2].

معنى الفاءِ ودلالتها في: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾:

المكذِّبون يعاقبون في الدُّنيا عقابًا حسّيًّا وعقابًا نفسيًّا، ليبلغ عقابُهم ذروته

الفاءُ الواردةُ في قوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حرف عطف يفيد بجانب التَّعقيب معنى التَّسبُّب، والمعنى: أنَّ مبالغةَ هؤلاء الأحزاب في تكذيب رسلهم، واتِّهامهم زورًا وبهتانًا بالافتراء والاختلاق وغيرها مِنَ التُّهم الشَّنيعة، تَسبَّبَ عنه استحقاقُهم العذابَ الَّذي أنزلَهُ الله بهم، على وجه السُّرعة والمباغتة وعدم الإمهال، فحصل لهم بذلك نوعان مِنَ العقاب، أحدُهما حسّيٌّ، ويتمثَّل في الإغراق أو الإحراق أو الهلاك بالرّيح أو غيره ممّا يعرفهُ القاصي والدّاني، وتنطق به الآثار والأخبار، والآخر نفسي، ويتمثَّل في الصَّدمة والمباغتة وعدم إعطائهم فرصةً للتَّوبة أو الرُّجوع عمّا هم فيه، وبذلك يبلغ عقابُهم على التَّكذيب في الدُّنيا قمَّتَهُ وذروته، بجانب ما ينتظرهم من عقابٍ وعذابٍ في الآخرة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 139.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 76.

دلالةُ التَّعبير بالماضي: ﴿فَحَقَّ﴾:

مَـنْ قـدر على إيـقـاع العـقـاب فيما مضى قادرٌ على إيقاعهِ فيما هو آتٍ

عبَّر النَّظمُ عن استحقاق الكافرين العقابَ بالفعل الماضي: ﴿فَحَقَّ﴾ لعدَّة مقاصد: أوَّلها: الدَّلالة على أنَّ هذا العقابَ بنوعيه الحسّيِّ والنَّفسيِّ عقابٌ عادلٌ لا ظلمَ فيه ولا تجاوز، ثانيها: الدَّلالة على وقوع العذابِ وحصوله وعدم قدرة الأحزابِ على التَّخلُّص منه بأيِّ سببٍ مِنَ الأسباب[1]، على الرُّغم مِن قوَّتهم وشدَّتهم، وثالثها: إنذارُ مشركي مكَّة بوقوعه عليهم، وتهديدهم بنزولهِ بهم إن هم استمرّوا على تكذيبِ رسول الله ومشاقَّته والتَّعزُّز على الحقِّ؛ لأنَّ مَنْ أوقعه فيما مضى على مَنْ هم أشدُّ منهم قادرٌ على إيقاعهِ عليهم فيما هو آتٍ من باب أولى.

الغرضُ مِن الإضافة في ﴿عِقَابِ﴾:

تكذيبُ الرَّسول تـكـذيـبٌ لمـن أرسـلَـهُ، وذلـك كـفـيـلٌ بإيـقـاع العذابِ على من يفعلُه

الأصل في قوله: ﴿عِقَابِ﴾ أنَّه مضاف إلى ضمير المتكلِّم - العائد إلى المولى سبحانه، والتَّقدير: (عقابي) - إضافةَ تفخيمٍ وتهويلٍ وتعظيم للعذاب الذي أوقعَهُ الله على المشركين الذين اجترؤوا على تكذيبِ رسلِهِ؛ لأنَّ تكذيبَهم فيه نوعٌ مِنَ الاستهانةِ بِمَن أرسلَهم، "والمَقصودُ مِنهُ زَجرُ السّامِعينَ"[2] وتخويفُهم؛ لما فيه من إلماحٍ إلى أنَّ تكذيبَ الرَّسول ﷺ فيه اجتراءٌ على اللهِ واستهانةٌ بعقابهِ، وهو ما يوجب إيقاعَ العذابِ وإنزالَهُ على وجهِ السُّرعةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقاب والعذاب:

الأوَّل يحصل على وجـه الـسُّـرعـة، والآخـر يُحتمل حصولُهُ بعد حين

العقابُ ينبئُ عَنِ استِحقاق، وسمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعِل يستَحقُّهُ عقيب فعلِهِ، ويجوز أن يكونَ العَذاب مُسْتَحقًّا وغير مُستَحَقٍّ، وأصل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 344.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 372.

العقاب التُّلُوُّ، وهوَ تأديةُ الأوَّل إلَى الثّاني، يُقال: عقب الثّاني الأوَّل؛ إذا تلاه، وعقب اللَّيل نهارٌ، واللَّيلُ والنَّهارُ هما عقيبان، وعاقبت اللِّصَّ بالقطعِ الَّذي يتلو سرقته، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83] وعلى المُجرمين؛ لأنَّها تعقب المُتَّقينَ خيرًا والمجرمين شرًّا[1]، ولمّا كان قصدُ النَّظم الكريم تهديدَ مشركي مكَّةَ وتخويفَهم بنزول العذابِ بِهم، كما نزل بِمَن سبقوهم في التَّحزُّب والتَّكذيب؛ كان التَّعبير بـ (العقاب) أنسبَ؛ لدلالتِهِ على السُّرعة الباعثةِ على الارتداعِ عن التَّكذيب والمشاقَّة، بخلاف مفردة (العذاب) الدّالةِ على احتمال حصولِ العقابِ بعد حينٍ، وهو ما يجعل التَّهديد غير مُجْدٍ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»